﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الروم: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين بيان مصير الكافرين، وتأكيد قدرة الله على الخلق والبعث

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى أنَّ عاقِبةَ الكافِرينَ إلى الجَحيم، وكان في ذلك إشارةٌ إلى الإعادةِ والحَشرِ؛ لم يَترُكْه دَعوى بلا بَيِّنةٍ، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، يَعْني مَن خَلَقَ بِالقُدْرَةِ والإرادَةِ، لا يَعْجِزُ عَنِ الرَّجْعَةِ والإعادَةِ، فإلَيْهِ تُرْجَعونَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ (خلق) أصْلانِ: أحَدُهُما تَقْديرُ الشَّيْءِ، والآخَرُ مَلاسَةُ الشَّيْءِ[2]، والخَلْقُ أصْله: التَّقْدير المُستقيم، يقال: خَلَقْتُ الأديمَ، إذا قَدَّرْتَهُ قبل القَطْع، ويُسْتعمل في إبداع الشّيء مِن غَيْر أصْل ولا احتذاء، كَما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبْدَعهما، ويُسْتَعمل في إيجاد الشَّيء مِن الشَّيْء، نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، والثّاني: في الكَذِب، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت: 17][3]، والخَليقَةُ: الطَّبيعةُ، والجمع الخَلائِقُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قدرة الله على الخلق والإعادة فإليه الرُّجعى

يُبيِّنُ الله تعالى ما يدُلُّ على قُدرته، ويَذْكرُ أحوالَ النّاسِ وأقسامَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: اللّهُ وحْدَه هو الّذي يبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَم، مِنْ غَيْر شريك ولا ظَهير، ثمَّ يُعيده فيُحييه خَلْقًا جَديدًا، مرَّةً ثانيةً بعدَ فنائه، ثمَّ يَرجِعُ الخَلْقُ جميعًا إليه وحْدَه يومَ القيامةِ، فيُجازي المُحْسِن بإحسانه والمُسيء بإساءته[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 405.

وترشد الآيةُ الكريمة إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض مشاهد القيامة، وإلى تأكيد الإيمان باليوم الآخر؛ إذ ذكَّر تعالى عبادَه بأمر يعترفون به، وهو أنه بدأ الخلق، ولا أحد ينكر ذلك، ولا أحد يدَّعي أنه خلق نفسه، فكلُّ إنسان يعرف أنه مخلوق من عدم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

يَبْدأ الله الخَلْق بمشيئته، ثُمَّ يعيده إذا ما شاء بمشيئته

الاستئناف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ، وهو شُروعٌ فيما أُقيمَتْ عَلَيْه هَذِهِ السّورَةُ، من بَسْطِ دَلائِلِ انْفِرادِ اللَّهِ تَعالى بِالتَّصَرُّفِ في النّاسِ، بِإيجادِهِمْ وإعْدامِهِمْ وبِإمْدادِهِم وأطْوارِ حَياتِهِمْ، لِإبْطالِ أنْ يَكونَ لِشُرَكائِهِمْ شَيْءٌ مِنَ التَّصَرُّفِ في ذَلِكَ، فهي دَلائِلُ ساطِعَةٌ عَلى ثُبوتِ الوَحْدانيَّةِ الَّتي عَموا عَنْها[2].

بلاغة القصر في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ﴾:

الله تعالى يَبْدَأ الخَلْق على غَيْر مِثال سابق

تَقْديمُ اسْمِ الجَلالَةِ عَلى المُسْنَدِ الفِعْليِّ، لإفادة االتَّخصيص، فاللّه تعالى وحْده هو الّذي يَبْدَأ الخَلْق على غير مِثال سابق، ثُمَّ يُفنيه، ثُمَّ يُعيده، والقَصْر هنا حقيقي تحقيقيّ مِن باب قَصْر الصِّفَة على الموصوف[3].

سِرُّ التَّعبير بمضارع البدء:

عُبِّر بالمضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ البَدْء مُتَجَدِّد شيئًا فشيئًا مادامت الدَّنيا[4]، و(أل) في ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ للاستغراق الدّالِّ على العموم والشُّمول.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 165، وابن عثيمين، تفسير سورة الروم، الآية: (11).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(4) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 229.

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾:

مُقَدِّمة منطقيَّة واستدلال عَقْليّ، على المعنى المراد

في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، إدْماجٌ حَسَن، وخلاصته إدماج المتكلم غرضًا في غرض، أو بديعًا في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين، أو أحد البديعين؛ لأنَّهُ إذا سُلِّمَ للّٰه تعالى بَدْءُ الخَلْقِ، كانَ تَسْليمُ إعادَتِهِ أوْلى وأجْدَرَ، وحَسَّنَ مَوْقِعَ الاسْتِئْنافِ، وُرودُه بَعْدَ ذِكْرِ أُمَمٍ غابِرَةٍ، وأُمَمٍ حاضِرَةٍ، خَلَفَ بَعْضُها بَعْضًا، وإذْ كانَ ذَلِكَ مِثالًا لِإعادَةِ الأشْخاصِ، بَعْدَ فنائِها وذِكْرِ عاقِبَةِ مَصيرِ المُكَذِّبينَ لِلرُّسُلِ في العاجِلَةِ، ناسَبَ في مَقامِ الاعْتِبارِ أنْ يُقامَ لَهُمُ الاسْتِدْلالُ عَلى إمْكانِ البَعْثِ؛ ليَقَعَ ذِكْرُ ما يَعْقُبُهُ مِنَ الجَزاءِ، مَوْقِعَ الإقْناعِ لَهم[1]، فكان هذا بمنزلة البُرهان العَقليِّ والمَنْطِقيِّ؛ لإثبات البعث والنُّشور.

سِرُّ إفراد الضّمير في ﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

البَعْثُ ليس ابتداءَ خَلْقٍ، ولكِنَّه إعادةٌ بعد ممات

أفْرَدَ الضَّميرَ في ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ باعْتِبارِ لَفْظِ الخَلْقِ، وجَمَعَهُ في ﴿تُرْجَعُونَ﴾ باعْتِبارِ مَعْناهُ[2]، ولا يقطع بهذا الأمر، قولًا وفعلًا، في الحياة وفي المعاد، إلّا اللّٰه القدير، "وفي أعراف البشر أنَّ إعادة الشّيء أهونُ من ابتدائه؛ لأنّ الابتداء يكون من عدم، أمّا الإعادة فمن موجود، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: 27]"[3].

معنى حَرْف ﴿ثُمَّ﴾ في الآية:

عَطْف جُمْلة على جُمْلة، مفيد في ترسيَة المعنى وتكامله

الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لِلتَّراخي الرُّتْبيِّ، كَما هو شَأْنُها في عَطْفِ الجُمَلِ، وذَلِكَ أنَّ شَأْنَ الإرْجاعِ إلى اللّٰه، أعْظَمُ مِن إعادَةِ الخَلْقِ، إذْ هو المَقْصِدُ مِنَ الإعادَةِ، ومِن بَدْءِ الخَلْقِ[4]، وأضاف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(2) الشَّوْكاني، فَتْح القدير: 3/ 160.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 1330.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 111، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.

البِقاعيّ: "ولّما كانَ الجَزاءُ أمْرًا مَهولًا، أشارَ إلَيْهِ بأداةِ التَّراخي فقالَ: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ﴾"[1].

بلاغة القصر بالتّقديم في السّياق:

بيان أنّ إلى الله المَـرْجِـع، وإليه المَصير

قُدِّم الجارّ والمجرور على الفعل في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لإفادة الاختصاص، أيْ: تُرجعون إليه لا إلى غَيْره، وهذا مِن باب قَصْر الصِفَة على الموصوف قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

نكتةُ الالتفات من الغَيْبة إلى الخِطاب:

موتُ الإنسان وبَعْثُه، كلاهما جَبْرٌ لا اختيار فيه

قَرَأ جمهور القراء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بالتَّاءِ عَلى الخِطابِ، وحُجَّتُهم أنَّ الْكَلام في ابْتِدائه، قد يكون خَبرًا ثمَّ يُصْرَف عَنهُ إلَى خِطاب كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2] ثمَّ قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، صار الْكَلام من الْغَيْبَة إلَى الْخطاب[2]، والمراد هُنا: إلى مَوْقِف الحِساب والجَزاء، وهذا الالتِفاتُ لِلْمُبالَغَة في التَّرْهيب[3]، وقَرَأ أبو عَمْرٍو وشعبة عن عاصم، ورَوْح عن يعقوب ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء، وحُجَّتُهم أنَّ المُتَقدِّم ذِكْره غَيْبَة: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فقَرُبَ مِن ذِكْر الخَلْق فجَعلا الكلام خَبَرًا عَنهم؛ لاتِّصاله بِذِكْرِهم.

ويعقوب على قاعدته من قراءة مثل هذا بالبناء للفاعل؛ فتكون قراءة روح عنه: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ وتكون قراءة رويس عنه: ﴿تَرْجِعُونَ﴾، فحجُّة قراءة الجمهور أنّه من (أُرْجِعَ) إذا فُعِلَ به الرجوع، فالله سبحانه هو وحده القادر على إرجاعهم، ونظير هذا المعنى قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الكهف: 36] وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 62][4]، وأمّا قراءة يعقوب بالبناء للفاعل فجعل فعل الرّجوع منهم، ونظيره

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 54.
(2) ابن زَنجلة، حُجّة القراءات، ص: 556، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 344.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 353.
(4) ابن الجزري، النشر: 208/ 2، والفارسي، الحجّة: 5/ 422.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]، فهو فاعل في اللّفظ دون المعنى، نحو: (مات زيد).

دلالة بناء الفعل لما لم يسمّ فاعله:

الرّجوع إلى الله حَتْمٌ لا مناص منه، ومن كذّب به هلك

بُنِي فِعْل الرجوع إلى الله ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ لِما لَمْ يسمّ فاعله؛ للإشارة إلى سَلْب الاختيار عَنْهم في الرُّجوع إلى الله تعالى، فهُم يُساقون إليه سبحانه سَوْقًا، لا يَحيدون عن الرّجوع فيه إلى الله تعالى، للجزاء والحِساب، ولا يملِكون له دَفْعًا، والفاعل لم يذكر للعلم به، لأنّه لا أحد يدّعي الخلق، ناهيك عن بعث الخلق، بعد حياة البرزخ، وإرجاع من يُبعث إلى الله ليُحاسَب ويُجازى، وفْق ما يناسب عمله وسعيه الّذي قدّمَتْه يداه، وقيل: "﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بمعنى في أموركم كلّها، في الدّنيا، وإن كنتم لقصور النّظر تنسبونها إلى الأسباب"[1].

نُكْتة العدول عن الإفراد إلى الجمع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

اختلاف أحوال الخلق في الرُّجوع إلى الله تعالى

عُدِل عن الإفراد في ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ إلى الجمع في ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، حيث كان الظّاهر أنْ يقال: (ثُم إليه يَرْجِعُ)، أي الخَلْق؛ لأنَّ النّاس جميعًا لا يختلفون في بَدْء الخَلْق، لكن تختلف أحوالهم في الرُّجوع إلى الله تعالى، فهذا مُؤْمن، وهذا كافر، وهذا طائع، وذاك عاصٍ، ففي حال الرُّجوع إلى الله تعالى، سَتَفترق هذه الوحدة إلى طَريقين: طريق للسُّعداء، وطريق لِلأشقياء؛ لذا لَزِم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة، ثم انتقل إلى الجَمْع في الرُّجوع إلى الله لاختلاف الخلْق في الرُّجوع[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّجوع والعَوْدة:

الرُّجوعُ العَوْد إلى ما كان منه البَدْء، والعودة تكون إلى غير مرغوب فيه

الرُّجوع: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا: عادَ، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ، ويَدُلُّ أصْل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 54.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11231.

الكلمة عَلَى رَدٍّ وتَكْرارٍ[1]، والرُّجوعُ: العَوْد إلى ما كان منه البَدْء، أو تقدير البَدْء مكانًا كان أو فِعْلًا، أو قَوْلًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجزء مِن أجزائه، أو بفعل مِن أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[2]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 94]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: 60]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العَلَق: 8].

وأمّا العَوْد: فهو الرُّجوع إلى الشَّيْء بَعْد الانصراف عنه؛ إما انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعَزيمة[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: 275] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: 107]، والعودة ومشتقاتها في القرآن الكريم، تَدُلُّ على العودة إلى شيء مكروه منبوذ سَيِّئٍ، وغير مرغوب فيه ولا مُسْتَحَبّ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: 275]، وقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: 88] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة: 8].

والفرق بين العَوْدة والرُّجوع: أنّ الرُّجوع فِعْل الشَّيء ثانيةً، ومصيره إلى حال كان عليها، والعَوْد: يُسْتَعمل في هذا المعنى على الحقيقة، ويُسْتَعمل في الابتداء مجازًا، قال الزَّجّاج: يقال قد عاد إليَّ مِن فلان مكروه، وإنْ لَمْ يَكُن قَدْ سَبَقَه مَكروه قَبْل ذلك، وتأويله أنّه لَحِقني منه مكروه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(3) السَّمين الحَلبي، عُمدة الحُفّاظ: (عود).
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغَويّة، ص: 250، والزَّجاج، إعراب القرآن: 3/ 321.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»